فلورنسا ومؤرخوها

توصف فلورنسا فى التاريخ الحديث بمدينة الفطنة ، ولا مكان أشبه بأثينا (فن العصر الكلاسيكى) من فلورنسا : قدرة أهلها على التفكير فى عقلانية نادرة ، وإدراك وتمييز ، وحذق ، وبراعة ، ولطف المزاج – وأهلها لا يشعرون وحدهم بهذا التميز . فأهل روما ونابولى وإقليم اللومبارديا يشهدون لها بكل هذا ، ويعترفون بتفوقها فى الأدب والفنون والقانون والفلسفة والمعارف العامة .

فعندما ينتهى الإنسان من صراع الحياة ، وتطمئن غريزته إلى البقاء ، حين ذاك تبدأ دوافع الحضارة فى التحرك ، وهى ثلاثة : حب المال ، وما يحققه لصاحبه ، والتطلع بمعنى الرغبة فى المعرفة بالرؤية والأسفار ، أو بالقراءة ، والتعرف على الإنسان من بين المخلوقات . وثالث الدوافع وأقيمها : حب الجمال . وكل الفنون ربيبة الحسن والكمال ، وكلمة الفنون هنا تعبر عن المعنى الأصلى فى لغتنا العربية . فلا تعجب أن نضع هنا التجارة والملاحة ، والفلسفة والعلوم والتربية ، والعمارة والنحت والتصوير ، والموسيقى ، والشعر

وهو زينة الآداب بلا منازع ، وفى كل هذه الفنون ما يرفع من شأن ابن آدم ويثرى حياته .

ومن القليل أن تجد أمّةً تملك كل هذه النعم ، وهى القلة التى تتصدرها حضارة مصر القديمة ، وأندادها فى العلم القديم – وأعجب ما فى فلورنسا وعصرها الزاهر أنها أشبهت أثينا : اجتمع لهما حب الجمال ، والمال ، والانفتاح على العالم ، بالتطلع إلى المعرفة .

وجولة متمهلة مدى بضعة أيام كفيلة وحدها لإثبات هذا ، ولسنا بحاجة إلى التكهن بما كانت عليه فى فترة عزها . كنائسها وقصورها ، وتماثيلها ، ولوحات صورها . ولقد اختار المؤرخ البريطانى سيموندز مؤرخيها وكتّاب حولياتها لتوكيد هذه الحقيقة .

تطالعك مؤلفاتهم على صور تفيض بالحياة لعظماء تاريخها . وأهم من هذا أن تعجب بما فيها من روح النقد ، وهوية التجارب . المؤرخون الفلورنسيون نشئوا وتربوا على التاريخ الرومانى والإغريقى ، وعركوا الحياة فى مجالس المدينة وفى بلاطات الأمراء الأجانب .

يصدرون أحكامهم من مستوى رفيع – بعد أن يخلصوها من مشاكل الوقائع المعاصرة بفلسفة الماضى ، وبمعارفهم الحاضرة . ويستحق مؤرخو فلورنسا أن يعتبروا من مكتشفى المنهاج التاريخى الحديث – فهم أول من أدركوا عدم الاكتفاء بالدولة وحدها ، بحروبها ومعاهداتها ، بل أن ينقدوا ظروف حياة الأمة وروحها . فهذا هو

موضوع البحث التاريخى . أضأل التفاضيل قد يكون لها قيمة تعلو على كل القيم ، سواء كانت تختص بسيرة الأشخاص ، أو بالاقتصاد أو بالمجال الحيوى (الطبوغراف) . وبينما كانت أوربا تجهل الإحصاءات أو غير مجهزة للنفاذ إلى ما تحت سطح الحوادث ، إلى المنابع السِّرِّيَّة للتصرف والسلوك ، فقد تكونت فى فلورنسا مجموعة من المؤرخين العلميين (الأكاديميين) يهتمون بفحص السجلات العامة ودراستها ، والأوراق الرسمية بكامل أرشيفها ، والمذكرات الخاصة بذوى النباهة والمعاينة والترصد . وهؤلاء المؤرخون أعدوا أنفسهم بالاطلاع الفسيح على الفلسفة عند أرسطو سياسية أو أخلاقية ، وعند أفلاطون وسيسيرون وتاسيتوس وبوليبيوس ، وتيتوس – ليڤيوس . ثم هم حرصوا على الاتصال بمن يعرفون ماجريات الوقائع فى كل باب من أبواب الاستقصاء التى تعرض لهم . .

ويمكن القول بأن طبع الفلورنسيين المتغير ، عرضهم للثورات كما نمَّى ذكاء مؤرخيهم الكبار .

وهذه بعض الأسماء : چوڤانى ڤيلانى ، ماكيافيلِّى ، فرنشسكو جيتشارديني وبيتّى . واختَارُ من بينهم جيتشارديني ، لأنى سأخصص فصلاً لماكيافيلِّى .

ماكيافيلِّى (١٤٦٩ – ١٥٢٧) جيتشارديني (١٤٨٣ – ١٥٤٠) بيتىّ (١٥١٩ – ١٥٨٩) .

يعتبر جيتشارديني أهم مؤرخ لفلورنسا باتفاق أكثر من وضعوا كتبًا عن «الرينسانس» . كان جيتشارديني محاميًا قديرًا ، ومتكلمًا بليغًا ، أوفدته «السنيوريا» (مجلس الحكومة) – سفيرًا في بلاط فرناندو ملك أراجون ، وعينه البابا ليون العاشر حاكمًا على ريجيومودينا ، ثم «بارما» مضافة إليها . وأقامه البابا كليمنتي السابع ، نائبًا على إقليم رومانى ثم رقّاه قائدًا لجيش البابوية ، وعينه بعد ذلك حاكمًا على بولونيا . واستقال من هذه الأخيرة لدى وفاة كليمانتي السابع ، لأنه فضل أن يخدم أمراء فلورنسا من أسرة المديتشي ، وعين عضوًا في مجلس الشيوخ إلخ . . وعندما جاء زمن التقاعد سكن في قيلاّ يملكها (١٥٣٧) ، وقضى فيها بقية حياته يكتب تواريخه ، وأهمها «تاريخ إيطاليا» .

المؤرخ البريطاني سيموندز يهوى المقارنة في تقديره النقدي ، فيقول بأنه في هذا الكتاب يشبه تيتوس – ليفيوس في تصويره لبعض شخصيات تاريخية في عصره ، ويصفه بأنه فنان ذو براعة . وفي هذا يشبهه بالمؤرخ الروماني الأشهر تاسيتوس . وبفضل جيتشارديني يملك القارئ عملاً تاريخيًا عظيم القيمة عن النصف الأول من القرن السادس عشر في إيطاليا .

والغريب أنك لا تحس بأي أثر من تحمس عند الرجل الرزين ، فلا شخصية خيرة أو شريرة تثير فيه فزعًا أو تعنيفًا . ولا مكان في قائمته لبواعث نفسية تختص به . وقد يظهر شيئاً من القبول بما فيه خير المجتمع . المهم أن العقيدة والضمير لا موضوع لهما في البواعث

الإنسانية . إنما الطمع ، والحساب ، والحسد هى التى تحرك العالَم حسب تجارب المؤرخ الكبير : القوى يدوس الضعيف ، والمخادع هو الذى يحتوى البرىء ، والغش هو الفائز ، وهذا أمر طبيعى فى نظره ، فلا المؤلف المؤرخ غاضب ، أو بائس . إنما هو حريص هادئ فى مواجهة الخطر الذى يُهَدِّد بَلَدَه .

ويرى المؤرخ سيموندز أنه بهذه القدرة غاب عنه الشعور بعظمة العصر أو رؤية القوى المولدة لشىء جديد . فلم يتوقع نتائج الانشقاق الدينى الذى سيحدثه مارتن لوثر . ولو أنه أدرك الأثر المبادر على السياسة الايطالية من الغزو الفرنسى . ومع أنه فى نقده للبابوية ، توقع نتائج محاباتهم لأقاربهم بالإضافة إلى أطماعهم الدنيوية ، فإن جيتشارديني لم يحس بضرورة التصحيح النفسانى والدينى فى سبيل الإصلاح .

وفى سنواته العشرين الأخيرة ، قدم المؤرّخ كتابيه : «حوار فى نظام فلورنسا» ، و«الحكاية الفلورنسية» . وهما من أحسن ماكتب . لأنه وَضَعَهُمَا كمذكرات شخصية ، ليست للنشر . فكان صريحًا بلا تحفظ . انكشفت فيه حكمته السياسية بقوة .

حلل العسف المديتشى ، نتيجة إهمال تلك الأسرة لمبادئ العدالة ، وفى طريقة توزيع الضرائب ، لم تكن خطة المديتشى تتعدى الاستحواز على السلطة دون نظر إلى أن هذا يسحق روح الشعب ، ويطفىء حمية الجيش . وفى رأى المؤرخ الصارم أن

العلاج الوحيد لمصائب الأسرة الظالمة هو السم أو الخناجر ! !
وإلا فإن أقل شرارة تبقى منهم قديرة على إثارة المتاعب . وأبدى جتشاردينى رأيه فى أوضاع الحكم الثلاثة : حكم الفرد ، وحكم المجموعة المختارة ، وحكم الشعب . وبعد أن اختار حكم المجموعة المختارة ، انتهى إلى أنها أضل الثلاثة سبيلا . ويبدو من إعجابه بدستور البندقية (فينيسيا) أنه يعنى تفضيل العمل بثلاثة أوضاع الحكم معًا . وهذه «بوطوبيا» .

وأهم ما يعجب قارئ كتابه الآخر «تاريخ فلورنسا» هو الصور القلمية التى يقدمها للدوق لورنزو المديتشى ، وللراهب سافونارولا ، وللبابا إسكندر السادس ، ثم لتشيزرى بورچيا ، وما اقترف من قبائح وجرائم شنيعة . وتحليله لها ممتاز . ويرى سموندز أنّ مرونة جتشاردينى ، وحكمته ، وخبرته تظهر فى هذا الكتاب .